

جدلية العلاقة بين الإسلاموفوبيا وحوار الحضارات

مرسي مشري*

مقدمة:

يعتبر مفهوم حوار الثقافات أو الحضارات من بين المفاهيم الرائجة التي فرضتها التغيرات الحاصلة في العلاقات الدولية لفترة ما بعد الحرب الباردة، فقد أصبحت الدول الغربية: (الولايات المتحدة والدول الأوروبية)، في إطار بحثها الدؤوب عن عدو يحل محل الاتحاد السوفياتي، تنادي بنظريات الصراع والصدام مع العالم العربي الإسلامي، متهمة إياه بكل مظاهر العنف والتعصب والتخلف، إلى أن ترسخت تلك الصورة في مخيلة المواطن الأوروبي البسيط، وقد استغلت الدول الغربية في حملتها الدعائية ضد الإسلام تقدمها التكنولوجي في وسائل الاتصال، موظفة بعض السلوكات الخاطئة لبعض الحركات الإسلامية التي تدعي تمثيلها للإسلام.

إن مثل هذا التوظيف الدعائي أنتج مفهوم الإسلاموفوبيا: الخوف من الإسلام، الذي انعكس سلباً على العلاقات السلمية بين الشعوب، وأصبح يهدد الحضارة الإنسانية بالاندثار؛ لذا صار من الضروري فتح باب الحوار مع الدول والمجتمعات الغربية؛ من أجل تصحيح الأخطاء، وبعث فرص التعاون والتعايش.

وفي ظل الصورة النمطية التي يحملها المواطن الأوروبي عن الإسلام والمسلمين، هل يمكن، من خلال حوار الثقافات، تصحيح مفهوم الإسلاموفوبيا، ومن ثم تصحيح صورة العرب والمسلمين لدى المجتمعات الأوروبية؟.

إن تحليل العلاقة بين حوار الحضارات وظاهرة الإسلاموفوبيا يتطلب التطرق إلى المناخ السائد في الدول الأوروبية، وأسباب تنامي الخوف من الإسلام، والأطراف المسؤولة عنه، من خلال التعرض إلى العوامل التاريخية المساعدة في بروز الظاهرة: من حروب صليبية، واستشراق، وأحداث ١١ أيلول ٢٠٠١.

* أستاذ مساعد، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة حسية بن بوعلي بالشلف- الجزائر.

أولاً: العلاقات الدولية لما بعد الحرب الباردة، والحاجة إلى حوار الحضارات:

يمكن استنتاج حاجة العالم اليوم إلى حوار فعال وبناء، من خلال التعرض إلى خصائص العلاقات الدولية لفترة ما بعد نهاية الحرب الباردة عام ١٩٨٩، وأهم هذه الخصائص ما يلي:

يعيش عالم اليوم عصر العولمة التي أسهمت في تدفق الأفكار والسلع والخدمات عبر البلدان وبين الشعوب، وتنزع العولمة إلى توحيد العالم في مختلف مجالاته: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، وهو توحيد يحمل مخاطر جدية تهدد بإلغاء التنوع الثقافي، وانقراض الشعوب والأمم وذوبانها في النموذج الغربي المسيطر، وهذا ما دفع بعدد من الدول، ومن بينها الدول العربية، إلى عقد مؤتمرات للحوار السياسي لدرء خطر العولمة.^(١)

وفي عالم يعتبر فيه تزايد الصراعات ذات الصبغة العرقية والدينية تهديداً للأمن والسلم الدوليين، يؤدي الجهل، وسوء فهم الآخرين، وسوء فهم ثقافتهم إلى صدام الجهالات، ويعتبر حوار الحضارات، والاطلاع على ثقافة الآخرين ركيزة أساسية لحفظ الأمن والسلم الدوليين.^(٢)

وقد جاءت الرغبة القوية للحوار نتيجة يأس الإنسان المعاصر من الوصول إلى أهدافه المشروعة، أو غير المشروعة، عن طريق العنف، ولم تكن نتيجة لميل أو تطور طبيعي حميد في عقلية الإنسان المعاصر^(٣)، فقد خاض الإنسان حربين عالميتين لتحقيق أطماعه، ولم ينل منها إلا الدمار والخراب.

إن موضوع كل ثقافة حول العناصر المتطرفة (التي تتميز بالنسبية الأخلاقية، والنسبية الثقافية التي تنكر شرعية الثقافات الأخرى، أو تنكر جانب القيم المشتركة بين الثقافات، مثل الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة) التي تزعم تمثيلها لتلك الثقافة، وتمارس العنف ضد أصحاب الثقافات الأخرى، هو الذي يؤدي إلى إشعال نيران الغضب لدى قطاع كبير من أبناء الثقافات الأخرى وشعوبها، ومن ثم فإن منطق الفعل ورد الفعل يؤدي إلى الانزلاق إلى صراع الحضارات.^(٤)

إن عالماً تتحول فيه الحدود السياسية للدول إلى مناطق سلام، وتبادل للمصالح، وتتداخل فيه الثقافات الوطنية، ويجري الحديث فيه عن واقع التعددية الثقافية وانعكاساتها سياسياً ووطنياً يستوجب التوقف أمام الأمور الثلاثة الآتية:

أ- تحوّل القضايا الداخلية الوطنية (مثل: حقوق الأقليات، وحقوق الأفراد، وحرية العبادة، وسواها) إلى قضايا خارجية عالمية، وكذلك تحوّل القضايا العالمية (مثل: السلام، والتنمية، وحركة رؤوس الأموال، والاستثمارات، والخدمات، وتبادل السلع) إلى قضايا داخلية تمس صميم الاقتصاد الوطني والأمن الاجتماعي.

ب- القرار الوطني في دولة ما لم يعد ملكاً لأصحابه فقط، ولكنّ عملية اتخاذه باتت جزءاً من عملية أوسع، تلعب فيها عناصر ما وراء الحدود الوطنية دوراً أساسياً، وكذلك فإنّ الممثلين المنتخبين المكلفين بإدارة أمور دولة ما، أصبحوا رهينة نظام عالمي له حساباته ومصالحه وقوانينه الخاصة التي لا تلتقي بالضرورة مع المحلي - الوطني منها، بل التي كثيراً ما تتناقض معها أيضاً.

ت- انحصار فرص المحافظة على التنوّع الثقافي، وتآكل المساحات الوطنية التي توفر لهذا التنوّع قوة استمراره، والشعور بالاختناق الذي بدأت تعاني منه ثقافات متعددة، يعود إلى هيمنة ثقافة واحدة على العالم، ومحاولة فرض قيمها، واعتماد هذه القيم مقياساً للتخلف أو للتخضر.^(٥)

لقد أكد تقرير نادي روما لسنة ١٩٧٩ على أن القيم الحضارية والثقافية كان لها دور جوهري في الصراع بين الشمال والجنوب، فقد أعلن هذا التقرير أن "الهوية الثقافية والدولية، تشكل مصدراً متنامياً للنزاعات الاجتماعية والدولية... ويمكن أن تكون مصدراً من مصادر الصراع المتزايد داخل المجتمعات، وبين مجتمع وآخر..."^(٦).

إن التمايز الحضاري لا يؤدي إلى الصراع والصدام، وإنما المصالح السياسية والاقتصادية والاستراتيجية هي التي تقوم بتوظيف هذه التمايزات لتحقيق غايتين أساسيتين: غاية تعبوية، لتبرير الصدام الذي تقوم به تلك النخبة صاحبة المصلحة السياسية والاقتصادية تجاه الشعوب الأخرى، من أجل ضمان تعبئة نشطة وفعالة، تحت عناوين ومسميات تثير

الشعوب الغربية وتعبئها، وغاية تبريرية، لتغطية الأطماع التوسعية الاستعمارية بغطاء التمايز الحضاري، الذي يدفع إلى ضرورة الغلبة الحضارية لأحد الأطراف.^(٧)

وفي كل هذه الظروف المتميزة بتصاعد العامل الثقافي، وصراع الثقافات المحلية مع الثقافة الغربية المعولمة، والتداخل بين ما هو وطني مع ما هو عالمي، وعجز الدول عن تحقيق أهدافها بالقوة العسكرية، واستخدام الصراع الثقافي ستاراً لتبرير حقيقة المصالح التي يخفيها، أصبح حوار الحضارات نقطة تحول تاريخية في العلاقات الحضارية الدولية، والحضارة الإنسانية برمتها.

ثانياً: صراع الحضارات و بروز فكرة الخوف من الإسلام

تعتبر فكرة صدام الحضارات التي جاء بها صمويل هنتنغتون في المقالة التي نشرها في مجلة الشؤون الخارجية في سنة ١٩٩٣، والتي طورها في كتاب صدر له في سنة ١٩٩٦، من أخطر النظريات الصدامية التي أنتجها المفكرون في الغرب؛ لما تحمله من أفكار عنصرية تحت المجتمعات الغربية على مجابهة الحضارات الأخرى التي تختلف عنها، وعلى رأسها الحضارة العربية الإسلامية، حيث يقول هنتنغتون في كتابه حول صدام الحضارات: "المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة، أفرادها مقتنعون بسمو ثقافتهم، ومهووسون بضعف قوتهم، الفرنسيون هم أكثر تعلقاً بثقافتهم من كونهم عنصريين".^(٨)

ويعتبر هنتنغتون أن الفروقات بين الحضارات هي التي تؤدي إلى الصدام، وأبرزها: التمايز في مقومات الحضارات، وهي: التاريخ، واللغة، والدين، وبخاصة الدين، كما أن احتكاك الشعوب ببعضها، والتفاعل بينها، يساعد على بروز الفروقات بين الحضارات، وازدياد الوعي بها، بالإضافة إلى انعكاسات التحديث الاقتصادي والاجتماعي على الهويات القومية والوطنية؛ مما ولد الرغبة في صيانة هذه الهويات ضد الاختراقات الأجنبية، وكذلك ازدواجية النموذج الغربي الذي يصعب الاقتداء به اقتصادياً وتنموياً؛ لكونه غير مرغوب فيه ثقافياً وقيماً.^(٩)

أما المسلمون فإن تحديهم للحضارة الغربية يعود إلى نموهم الديموغرافي، وحيويتهم، وانبعاثهم الثقافي والاجتماعي والسياسي المتواصل، وتوجههم نحو الإسلام

باعتباره مصدراً للهوية والضمير والحس والتوازن، فهو جهد داخلي كبير لإيجاد الحل في الإسلام وليس في الإيديولوجيا الغربية، ويترجم هذا الانبعاث من خلال قبول العصرية، ورفض الثقافة الغربية، والانخراط من جديد في الإسلام باعتباره دليلاً ومنهج حياة في العالم العصري.

لقد أعطت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة مصداقية أكثر لمقولة هنتنغتون، فقد أفردت له مجلة The Atlantic Monthly مقالاً عن حياة ونظرية هنتنغتون بعنوان "جورج بوش وجه دعوة للنبي لإلقاء محاضرة في البيت الأبيض أواسط سبتمبر ٢٠٠١"، وقد علقت المجلة بالقول: إن نظريته الباردة لحقيقة العالم، التي كانت دائماً موضع جدل، برهنت الأحداث - بقوة - على صحتها.^(١٠)

لقد ساهمت أفكار هنتنغتون في صناعة رأي عام غربي يرفض التعايش مع الحضارات والأمم الأخرى، ومن ثم في اتخاذ مواقف مجتمعية غربية من المهاجرين الذين يعيشون في الغرب، وبخاصة في ظل الهجمات التي تعرضت لها الدول الأوروبية في عدة مناسبات، مثل: اعتداءات مترو باريس، واعتداءات مدريد ولندن، التي اتهمت في الضلوع بها شخصيات عربية إسلامية مقيمة في الدول الأوروبية، فزاد ذلك من خوف الأوروبيين من المهاجرين، وتنامت النزعة العنصرية ضدهم من خلال تنامي نفوذ الأحزاب اليمينية، فانعكس ذلك على موقف السلطات والحكومات الأوروبية من المهاجرين وقضية إدماجهم؛ لتحول سياستها من السعي لإدماجهم إلى السعي لطردهم بمختلف الوسائل.

لقد اتفق هنتنغتون وفكره مع توجهات الأحزاب اليمينية الأوروبية، حيث برر سلوكياتها برغبتها في الحفاظ على هويتها، ففي ظل هذه الظروف الفكرية وتجسيدها على أرض الواقع، هل يمكن أن يتحقق حوار حضارات مع الطرف الغربي؟

ثالثاً: دور الاستشراق في تشويه صورة العرب والمسلمين

هدف المستشرقون منذ بداياتهم الأولى إلى محاربة الإسلام لتحقيق هدفين هما:

- الحيلولة دون تسرب مبادئ القرآن وأفكاره إلى شعوبهم؛ ففقد التوراة والإنجيل مصداقيتهما.

- التقليل من قيمة القرآن، وإضعاف مكانته في قلوب المسلمين حتى يتسنى لهم تنفيذ مخططاتهم الصليبية الغربية، فقد أشار وليام إيوارت جلاستون إلى هذه الحقيقة بقوله: "مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون في أمان".^(١١)

ومن أجل الوصول إلى هذين الهدفين، عمدوا إلى دراسة القرآن الكريم دراسة شاملة، قبل البدء في مكافحته، لاكتشاف خباياه واستقصاء موضوعاته، ثم جعلوا من تلك الدراسة معاول يضربونه بها، وهذا ما يؤكد المبرر جون تاكلي بقوله: "يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضي عليه تماماً، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً وأن الجديد فيه ليس صحيحاً".^(١٢)

ولم يترك المستشرقون منفذاً للطعن في الإسلام إلا سلكوه، يقول محمد عبد الغني حسن: "وكل ناحية من نواحي القرآن لا تسلم من اتهامات المبطلين وادعاءاتهم، حتى القصص القرآني كان موضعاً للشك فيهِ".^(١٣)

ويمكن تصنيف هذه الاتهامات والادعاءات تحت أربعة نقاط رئيسة هي:

- إنكار مصدر القرآن الرباني، واعتباره من عمل محمد صلى الله عليه وسلم.

- الادعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

- البحث في حروف التهجي في أوائل بعض السور، والادعاء أنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في مصحف واحد، كما قال المستشرق المجري جولد زيهر.

- القول بأن القرآن ليس نظام مجتمع كاملاً، وإنما هو محاولة للإصلاح.

لقد ساهم الاستشراق والمستشرقون في تشويه صورة العرب والمسلمين، فقد قدموا للمجتمعات الغربية أفكاراً خاطئة عن ثقافة المسلمين وسلوكهم باعتبارهم متخصصين بالشؤون العربية والإسلامية، وأبرزهم في العصر الحديث:

- غوستاف فون غرونوبوم **Gustave Von Grunebaum** (١٩٠٩-١٩٧٢):

وقد ألف كتابين هما: الإسلام القروسطي: دراسة في الاستشراق الثقافي، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعات الأمريكية في عام ١٩٤٥، والإسلام الحديث: البحث عن هوية ثقافية، وهو مجموعة مقالات كتبها في عامي ١٩٥٢ و ١٩٦٢، وهو يرى أن العرب قوم بلا ثقافة، وأن ثقافتهم لم تقدم أي إسهام نظري في المعرفة، وأن دينهم غير خلاق، وغير قادر على التطور، واستبدادي، ومناهض للإنسانية، ولهذا فهو يتهم العرب بأنهم غير قادرين على التغير، وعلى فهم طبيعتهم وتاريخهم، وأنهم يتميزون بالخمول والسلبية، لذلك فإن علاجهم الوحيد هو تلقي الاستنارة من الغرب المتطور، وقد سعى غرونوبوم إلى نقل أفكاره إلى طلبته، الذين تأثروا به واعتبروه المسؤول الأول عن جعل دراسة الإسلام فرعاً جامعيّاً متقدماً في أمريكا.^(١٤)

- برنارد لويس **Bernard Lewis**: أستاذ يهودي في الجامعة الأمريكية، وهو

أشهر الباحثين في حقل الدراسات الشرقية الأنغلو-أمريكية، وأكثرهم نفوذاً، وقد أثرت كتاباته في توجيه البحوث المتعلقة بالشرق الأوسط؛ فقد كرس برنارد لويس أغلب كتاباته لدراسة الإسلام، ففي كتابه حول العرب في التاريخ يرى أن الحضارة العربية هي غير عربية، وأن العرب ليس لديهم حضارة، كما يرى في كتابه حول الشيوعية والإسلام أن الإسلام ذو طبيعة استبدادية، عدوانية، غير ديمقراطية، ويرى أن الاستبداد عنصر مشترك بين الشيوعية والإسلام، وهنا لا يفوتنا التذكير بمدى إسهام برنارد لويس في تجسيد فكرة صدام الحضارات التي تبناها هنتغتون، فقد كان أول من كتب عن فكرة الصدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية في مقالة صدرت له بمجلة *The Atlantic Monthly* بعنوان "جذور الغضب الإسلامي" في عام ١٩٩٠، حيث تبنى هنتغتون طرح لويس ليصوغه في نظرية صدامية بين الحضارات.

إن المكانة التي يحتلها هؤلاء المستشرقون في المجتمعات الغربية، باعتبارهم أعلم الناس بالمجتمعات الشرقية العربية والإسلامية، ونزعتهم الشديدة في محاربة المسلمين والإسلام، سمح لهم بتغذية عقول الحكومات والشعوب الغربية بأفكار مغالطة عن

المسلمين وسلوكهم، وأنتجوا صورة سلبية عن الإسلام، تلقتها الشعوب الغربية، وأصبحت تتقيد بتعاليمها في التعامل مع الآخر العربي المسلم.

رابعاً: صورة الإسلام في وسائل الاتصال الغربية

لعبت السلطة الرابعة دوراً جوهرياً في تكوين صورة نمطية سيئة عن الإسلام والعرب، وفيما يلي عينة من المقالات الأمريكية والبريطانية التي غدت الحملة الغربية على الإسلام:^(١٥)

• بيتر رودمان: "لا تبحث عن المعتدلين في الثورة الإسلامية" International Herald Tribune ١٩٩٥/٠١/٠٤.

• فرغوس بوردويش "الحرب المقدسة في طريقنا" Reader's Digest ، ١٩٩٥/٠١.

• توماس كامان: "صراع الثقافات: تصاعد الإسلام في فرنسا" Wall Street Journal، ١٩٩٥/٠١/٠٥.

• "الرعب الإسلامي: انتحار شامل"، Sunday Telegraph ، ١٩٩٥/٠١/٠١.

• "الجزائريون في لندن مصدر الإرهاب الإسلامي"، Sunday Times ، ١٩٩٥/٠١/٠١.

بالإضافة إلى عناوين أخرى يتم تداولها في الإعلام الغربي مثل: "الهلال الجديد في أزمة الانتفاضة العالمية"، و"الإسلام الصاعد يكتسح الغرب"،^(١٦) ومقال في جريدة Le Figaro بعنوان: هل سنكون فرنسيين في ٢٠٢٥؟ seront nous des Français en 2025 و يدل على مدى تخوف الأوروبيين من أن يصبحوا أقلية من جراء غزو العرب المغاربة لفرنسا، وقد لخص الأستاذ س. باليدا S.Palida الأخطار التي يمثلها المهاجرون على المجتمع الفرنسي بقوله « إن مجتمعات المهاجرين اليوم تشكل العدو الجديد الذي قام بغزو المجتمعات الأوروبية، وثقافتهم تشكل تهديداً للثقافة الغربية، فهم من حضارة مختلفة، وغير قادرين على التوافق مع الحضارة الغربية المتقدمة.. هذه المجموعات ينبغي تشديد الرقابة عليه »^(١٧).

كما ساهمت القنوات التلفزيونية في إيجاد جو أدى إلى موقف سلبي تجاه الإسلام، إذ نجد أن في ما مجموعه ١١٥١ شريطاً خصصته القناة الفرنسية الأولى (TF1) لموضوع الإسلام، قدم الإسلام السياسي مرادفاً للإرهاب في ٤٢٠ شريطاً، ونسبة (٣٣٪)، ومرادفاً للعنف في ١٥٤ حالة، ونسبة (١٣٪). وتفسر مثل هذه التغطية الإعلامية نتائج سبر الآراء الذي ينتهي بالنتائج التالية: ٦٧٪ من الفرنسيين يعتبرون أن الإسلام يعني التمامية،^(١٨) و ٦٧٪ يربطونه بالخنوع، و ٥١٪ يرفض القيم الغربية، و ٣٦٪ بالتطرف والعنف.^(١٩)

ويعتبر الانفجار الذي وقع في مدينة أوكلاهوما في عام ١٩٩٣ مثلاً معبراً عن طبيعة الإدراك الأمريكي، فقد قامت أهم القنوات الثقيلة (CNN, CBS, New York Times, Fox Station) بربطه مباشرة بانفجار المركز التجاري العالمي، ثم نادى بضرورة إعلان "حرب مقدسة ضد الإرهاب الشرق أوسطي"، وفي الأيام الثلاثة التالية تم تسجيل أكثر من ٢٠٠ حادث عنيف ضد أمريكيين مسلمين، وعلى أثر ذلك قامت مؤسسة فورد جويس بعملية سبر الآراء عام ١٩٩٣ ووصلت إلى نتيجة أن ٥٠٪ من الأمريكيين يعتبرون أن المسلمين معادون للغرب بعامه، وللولايات المتحدة بخاصة، وأنهم يربطون الإسلام بإيران.^(٢٠) والنتيجة نفسها توصلت إليها الدراسة الميدانية التي أجرتها مجلة News Week في آذار/ مارس ١٩٩٨، فقد أظهرت أن أغلبية الأمريكيين يعتبرون الإسلام ديناً أجنبياً، والمسلمين أصوليين نشيطين، أو إرهابيين لا يمارسون إلا لغة العنف، كما وصفت جريدة لوموند دبلوماسيك Le Monde Diplomatique المسلمين في أوروبا بأنهم يشكلون "قنبلة موقوتة ضد الغرب".^(٢١)

ويؤكد تقرير صدر عن المجمع الفرنسي ضد الإسلاموفوبيا عن وضع المسلمين في فرنسا عام ٢٠٠٨، أن الإسلام في فرنسا ينظر إليه على أنه ظاهرة اجتماعية جديدة ضد الحداثة، وضد الجمهورية، ومعادية للعلمانية، وضد الديمقراطية.^(٢٢)

وفي هذا الإطار يرى الباحث الفرنسي فرانسوا بورغا أن الإعلام الأوروبي يسعى دائماً إلى إبراز الإسلام بصورة سيئة بدلاً من إبراز الوجه الإيجابي له، كما يركز على العناصر والحركات غير المنضبطة، وينسبها دائماً إلى الإسلام، فعلى سبيل المثال، نشرت

صحيفة « الصنداي تلغراف » البريطانية تحقيقاً صحفياً بعنوان « Husband Order Fatwa Against British Wife » حول سيدة بريطانية أصدر زوجها فتوى بهدر دمها بعد هروبها منه بسبب خلافات بينهما، كما أذاعت الي.بي.سي الخبر نفسه في برنامج صباح الخير، وهنا تجدر الإشارة إلى اعتراف بعض الصحف الأوروبية، بالوقوع في تقديم صورة مغلوطة عن المسلمين في الإعلام الغربي، وبخاصة من خلال اتهامهم بالأصولية، ففي مقال نشرته صحيفة (الأوبزرفر The Observer) البريطانية بعنوان « من البيت الأبيض إلى هوليوود » ذكرت فيه أن تصوير المسلمين والجماعات الإسلامية، بصفة خاصة، بأنهم يتآمرون للسيطرة على العالم، وإبرازهم بالميل للعنف وحمل السلاح، يعد من قبيل تكوين صورة خاطئة تحمل خطورة بالغة.^(٢٣)

وإضافة إلى المقالات الصحفية والقنوات التلفزيونية، ساهمت التصريحات الرسمية التي تبثها وسائل الاتصال في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، فالرئيس كارتر وصف إيران بأنها "جماعة متهورة"، وكاتب الدولة وارن كريستوفر اعتبرها "الدولة الأولى المدعومة للإرهاب في العالم، وواحدة من أعظم التهديدات للسلام والاستقرار في المنطقة، إن لم تكن أعظمها"، أما ناطق الكونغرس غيغريتش (Newt Guigrich) فقد صرح بأن "السلطوية الإسلامية السياسية ظاهرة منتشرة عبر العالم، وهي موجهة ومؤسسة من طرف إيران"، ويدخل نائب الرئيس السابق دان كويل Dan Quayle ضمن الذين قارنوا الأصولية الإسلامية بالنازية والفاشية، وذلك خلال كلمته التي ألقاها أمام خريجي الأكاديمية العسكرية الأمريكية في أيار/مايو ١٩٩٠ حين قال: "ما يزال العالم مكاناً خطراً، لقد أخذتنا الدهشة في هذا القرن المنصرم ببروز الشيوعية والنازية والأصولية الإسلامية"، وهي مشاعر قام كويل بترديدها في كلمته أمام مؤتمر السياسة السنوي الحادي والثلاثين للجنة الأمريكية-الإسرائيلية للشؤون العامة (إيباك) في حزيران/يونيو ١٩٩٠.^(٢٤)

كما نذكر تصريحات بعض السياسيين الفرنسيين، منهم شارل باسكوا (Charles Pascoy) وزير الداخلية السابق الذي صرح بأن "في فرنسا ٥ ملايين مسلم منهم ٥٠,٠٠٠، و ٢,٠٠٠ متطرف يلجؤون إلى القوة".

إن ربط الرئيس ريغان بين القذافي والأعمال الإرهابية الليبية، والحركة الإسلامية الأصولية في بقاع الأرض، عند إعلانه عن الغارة الجوية الأمريكية على ليبيا، يؤكد ما يعتبره الكثيرون بأنه منهج ثابت معاد للإسلام، وموجه ضد العالم الإسلامي، وهذا ما تأكد منه المسلمون من خلال تعليق رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برليسكوني حين اعتبر هجمات ١١ سبتمبر إعلاناً عن انطلاق الحرب الصليبية.

وتأتي هذه التصريحات الرسمية المعادية للإسلام والعرب والمسلمين بفعل حملة التشويه التي تشنها مصادر يهودية، وبفعل تأثيرها في مراكز صناعة القرار في الدول الغربية بعامة، والولايات المتحدة بخاصة، بحكم سيطرتها على المؤسسات الإعلامية والمالية الدولية، وقد منحتها تفجيرات برجي التجارة العالمية في سبتمبر عام ٢٠٠١ المصدقية اللازمة لتأكيد اتهاماتها الموجهة للعالمين العربي والإسلامي.

خامساً: صورة الإسلام في المقررات المدرسية

تتأثر صورة الآخر في مخيلة المواطن الأوروبي بعدة وسائل، أهمها وسائل التنشئة السياسية، إذ تمثل الأسرة والمدرسة ووسائل الاتصال دوراً هاماً في بناء هذه الصورة، وتحتل المدرسة الصدارة من حيث التأثير في سلوك المواطن الأوروبي تجاه الآخرين، نظراً لعدد الساعات التي يقضيها الطفل في المدرسة، ومن أجل الوقوف على صورة الإسلام في مخيلة الطفل الغربي، وتأثير ذلك على إيجاد حالة خوف لديه من المسلمين، قام إياد القزاز، أستاذ علم الاجتماع في جامعة سكرامنتو بولاية كاليفورنيا الأمريكية، بتحليل محتويات ٣٦ كتاباً مدرسياً للعلوم الاجتماعية مقرر للتدريس في المدارس الابتدائية والمتوسطة في ولاية كاليفورنيا، وفي غيرها من الولايات الأمريكية خلال الفترة من ١٩٧٤-١٩٧٥، وقد وجد الباحث أن صورة الإسلام في المقررات تؤكد على طبيعة الإسلام العنيفة المولعة بالقتال، وأنه يبيح العبودية واستعباد الرجل للمرأة، أما العرب فهم شعب بدوي يعيش في الصحراء ويستخدم الجمل وسيلة وحيدة لمواصلاته، وأن العرب شغوفون بالغزو والنهب والسلب، أما بالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي، فالكتب المدرسية تميل إلى إظهار أن فلسطين أرض خالية، والناس القلائل الذين يعيشون

فيها هم كسالى وبدائيون، على عكس اليهود الذين هم شعب منتج ودؤوب ومجتهد، وأن إسرائيل الدولة الصغيرة، هي في صراع مع الدول العربية الكبيرة.^(٢٥)

وفي دراسة أخرى قامت بها الباحثة مارلين نصر شملت ١٦ مقررًا في الطور الابتدائي، من إصدار أربعة من أكبر دور النشر في فرنسا (Hachette, Nathan, Magnard, Bordas)، وجدت أن الصفات التي نعت بها العرب كانت بأنهم متخلفون ذهنيًا وعديمو القدرة على التأثير على الآخرين، وأنهم يعانون من تخلف اقتصادي، وقلة في الموارد، أما عن علاقة العرب بالفرنسيين فتراهم الكتب بأنهم متمردون، وقطاع طرق، ومخربون، وفي المقابل تظهر الكتب الفرنسيين الموجودين في العالم العربي بأنهم يتميزون بالتفوق الفكري، والتحكم في المناصب العليا السامية، وبالتفوق الاقتصادي؛ فهم أرباب عمل وأثرياء.^(٢٦) وتناست هذه المقررات عن قصد مختلف الخصال الحميدة التي يتميز بها العرب، مثل: الشرف، والشجاعة، وكرم الضيافة والرزانة ومساعدة المحتاجين.

أما عن صورة العرب في كتب القراءة للمرحلة الثانوية، فمن خلال دراسة ١٦ مقررًا، وجدت الباحثة أن أغلب الكتب في هذه المرحلة تتناول في موضوعاتها العرب، والعرب المهاجرين، والعنصرية، إذ تزوج ٢٥٪ من المقررات بين العرب والهجرة والعنصرية، و١٢٪ تربط العرب بالصحراء، و١٦٪ تتناول موقف العرب من المرأة، و١٢٪ تركز على المجابهة مع الغرب، و٣٪ تتحدث عن الرحلة إلى الشرق.^(٢٧)

ومن خلال تحديد موقع العرب في هذه النصوص وجدت الباحثة أن العرب يتميزون بالصفات التالية:

- أعداء أو خاضعون للمستعمر الفرنسي: فهم إما رؤساء قبائل متمردون، أو خدم وأدلاء عرب وطوارق، في مقابل ضباط وأسياد فرنسيين.
- التناقض والتبعية في الشخصيات العربية: فهم فقراء ويعيشون عيشة الحرمان، أما الأدلاء (الحركي) فهم يعيشون عيشة أحسن؛ لأنهم في رعاية أسيادهم الفرنسيين، أما العرب المهاجرون فهم عمال يعملون في بلد أسيادهم.

أما عن صورة العرب في كتب التاريخ المقررة، فهي ترى العلاقة بين الإسلام وأوروبا من منطلق المجابهة، فهي تتحدث عن الفتح الإسلامي والمجابهة الأولى، وتنعت المسلمين بالغزاة والقراصنة، ثم تتناول الكتب المجابهة الثانية من خلال الحروب الصليبية، بوصفها حركة دينية هدفها تكفير المسيحيين عن ذنوبهم من خلال الهجرة إلى المشرق، دون التعرض إلى الأسباب الإقطاعية للحروب الصليبية، أما عن صورة العرب فهم كفار غير مؤمنين، ثم تتناول المجابهة الثالثة، وهي ظاهرة الاستعمار بأنها حركة أوروبية لاستعمار العالم نتيجة حمى اقتصادية شملت كل الدول الأوروبية، وفيما يتعلق باستعمار فرنسا للجزائر فتراه الكتب حركة إيجابية نتج عنها إعمار البلاد، فهو مشروع تعمير بلد من خلال إنشاء المزارع وإقامة الطرق.

لقد تمحورت صورة العرب والمسلمين، من خلال الكتب الفرنسية، حول محورين:

- تجاهل الإسلام والعرب وحضارتهم ودورهم في البناء الحضاري للإنسانية، من خلال عدم التطرق إلى المنجزات العلمية والفكرية للحضارة العربية الإسلامية، وعدم التطرق إلى المفكرين العرب المسلمين ودورهم في النهضة الأوروبية؛ لأن ذلك يتنافى والصفات التي وردت حول العرب والمسلمين.

- تحقير وتشويه صورة العرب والمسلمين، واختصارها في أفراد غير منظمين يعيشون في قبائل أو بدو رحل، بحاجة إلى من يرشدهم من أجل إعمار بلادهم؛ لأنهم كسولون وقليلو الذكاء، وهذا ما قام به الاستعمار الفرنسي للدول العربية في شمال القارة الإفريقية.

إن خطورة الصورة النمطية التي يزرعها الغرب في مخيلة الأطفال والشباب الأوروبي، تؤدي إلى تنشئتهم تنشئة خاطئة، قائمة على أساس رفض الآخر، والنظر إليه نظرة استعلائية عنصرية، تجعله يرفض التعايش مع العرب المهاجرين في الدول الأوروبية، ويشكل لديهم عقدة الكبر، ورفض الحوار مع من هم أقل منهم شأنًا وحضارة.

سادساً: اليمين المتطرف ودوره في تصعيد حملة الكراهية ضد الإسلام

يعرف بيار أندري تاغيايف (Pierre-André Taguieff) النزعة اليمينية المتطرفة بأنها «الخوف الوطني المبني على الأساس الإثني، الذي يعتمد على التفرقة البيولوجية -

العرقية، أو التاريخية - الثقافية، والخوف من المهاجرين هو الترجمة السياسية له، ويعبر عنه من خلال انتقاد السلطة السياسية، ونظرية المؤامرة»^(٢٨) ويرجع البعض ظهور اليمين المتطرف في أوروبا إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية في الدول الأوروبية، في حين يرى فريق آخر أن العولمة، والرغبة الشديدة في الحفاظ على الخصوصية والهوية هما سبب ذلك، باعتبار أنه ظهر في وقت كانت تعرف فيه الدول الأوروبية ازدهاراً اقتصادياً جراء انضمامها إلى السوق الأوروبية المشتركة، وإلا فكيف يفسر حصول الحزب اليميني السويسري (الاتحاد الديمقراطي للوسط) في الانتخابات الفدرالية لسنة ٢٠٠٧ على ٢٩٪ من الأصوات، مما سهل عليه استصدار قانون يمنع بناء منارات لأماكن العبادة في سويسرا في عام ٢٠٠٩ بنسبة ٥٧٪، وقد حدث ذلك في دولة لم تتأثر بالأزمة الاقتصادية، كما حصل حزب الحرية اليميني في هولندا على المرتبة الثالثة في الانتخابات التشريعية الهولندية في جانفي/ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠، في بلد كان تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية عليه محدوداً.

إن رغبة الأحزاب اليمينية ذات النزعة العنصرية (المستندة إلى نظريات سمو الجنس الأوروبي على بقية الأجناس) في الحفاظ على نقاء مجتمعاتها من العناصر الدخيلة التي تختلف عنها عرقياً ولغوياً وثقافياً دفع بها إلى شن حملات دعائية ضد الجاليات والمهاجرين الموجودين في أوروبا، فكانت الجاليات العربية الإسلامية أكثر أقلية عرقية من حيث العدد، ومن حيث الاختلاف الحضاري، تعرضاً لحملات التشويه والدعاية من جانب الأحزاب اليمينية الأوروبية، فقد أعربت الجبهة الوطنية الفرنسية أن القيم الإسلامية لا تتفق مع قيم المدنية الفرنسية، وقد حكم على رئيسها جان ماري لوبان بغرامة مالية إثر نشره مقالاً صحفياً عن التحريض على كراهية الأجانب في أفريل/ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤، كما اتهم حزب الشعب اليميني في الدانمارك المسلمين بأنهم يقوضون القيم الديمقراطية، وينادون بالعنف، وفي تصريح لرئيس حزب لائحة بيم فورتاين قال: "أجد الإسلام بأنه ثقافة متخلفة"، كما صرح بقيام حرب باردة جديدة ضد الإسلام.^(٢٩)

وساهمت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في تعزيز موقف الأحزاب اليمينية، وتأكيد صحة طرحها حول الإسلام؛ مما منحها مصداقية أكبر في الانتخابات، ففي انتخابات المجلس النيابي الأوروبي في عام ٢٠٠٦ استطاع اليمين من أحزاب المسيحيين والمحافظين أن يشكل الكتلة

الأكبر بعد أن كانت لمدة سنوات في أيدي الأحزاب اليسارية من الاشتراكيين والديموقراطيين، وفي الانتخابات المحلية على مستوى الولايات والبلديات سجل اليمين نجاحاً في أكثر من بلد أوروبي، فمثلاً في النمسا استطاع أقصى اليمين الممثل في حزب الأحرار بزعامة يورج هايدر أن يقفز إلى المرتبة الثانية بنسبة ٢٧٪ من الأصوات، كما احتل حزب الشعب اليميني المرتبة الثالثة، وفي سويسرا جاء حزب الشعب من أقصى اليمين في المرتبة الأولى من حيث عدد أصوات الناخبين، والثانية من حيث عدد المقاعد في المجلس الوطني النيابي بنسبة ٢٢,٦٪ من الأصوات،^(٣٠) وفي الانتخابات الرئاسية لسنة ٢٠٠٢ تمكن ممثل حزب الجبهة الوطنية جان ماري لوبان- ولأول مرة في تاريخ فرنسا- من المرور إلى الدور الثاني بـ ٥,٥ مليون صوت، رفقة جاك شيراك.^(٣١)

وتكمن خطورة النجاحات الانتخابية التي حققها اليمين المتطرف في الدول الأوروبية في كونها منحته مقاعد وزارية في الحكومات الأوروبية، ففي إيطاليا نجح كل من حزب الوحدة الوطنية جيافرانكو فيني، ورابطة الشمال لامبرتو بوسي في دخول حكومة برلسكوني في عام ١٩٩٦، ثم في عام ٢٠٠٦، وفي النمسا تكمن حزب الحرية من إنشاء تحالف حكومي مع اليمين المحافظ بعد حصوله على ٢٧٪ من الأصوات في الانتخابات التشريعية لسنة ١٩٩٩، كما تمكنت أحزاب اليمين المتطرف في بولونيا (حزب ساموبرونا ورابطة الأسرة) من الدخول في الحكومة في ماي/ أيار/ مايو ٢٠٠٦، وفي بعض الدول الأوروبية أصبحت بعض الأحزاب اليمينية تشكل أول أو ثاني قوة سياسية، ففي سويسرا يحتل الحزب الديمقراطي للوسط ٥٥ مقعداً من بين ٢٠٠ مقعد في المجلس الوطني، أما في النرويج فيحتل حزب التقدم المرتبة الثانية في الانتخابات التشريعية ٢٠٠٩، بحصة ٢٢,٩٪ من الأصوات.^(٣٢)

إن تنامي تأثير الأحزاب اليمينية في المجتمعات الأوروبية انعكس سلباً على وضع الجالية العربية الإسلامية، وزاد من مشاعر الخوف والكره ضدهم، فقد بينت عمليات سبر آراء في أوروبا انتشار العداء تجاه الأجانب، إذ نجد أن ما بين ٦٥٪ و ٧٥٪ من الفرنسيين يعتقدون أن هناك فائضاً من العرب، وأن علاقاتهم بهم ستكون عدائية، وبالمقابل فإن ٤٥٪ إلى ٥٥٪ من المهاجرين المغاربة يرون أن الأوروبيين، وبخاصة الفرنسيين، عنصريون.

أما عن إسبانيا، وفي دراسة نشرتها شركة غالوب المتخصصة في سبر الآراء، تم التوصل

إلى أن ٦٠٪ من المواطنين الإسبان يعتقدون أن هناك عدداً كبيراً من الأجانب أكثر من اللازم، فالمواطن الأوربي يعتبر المهاجرين المنافس الرئيس على فرص العمل، وأنهم مصدر تهديد فعلي لثقافته وأمنه، كما بين استطلاع للرأي قام به الباحث الايطالي Livo سنة ١٩٩٩ شمل خمس دول أوروبية هي: فرنسا، ألمانيا، بريطانيا، إيطاليا، إسبانيا على عينة مكونة من ١٠٠٠ شخص حول موقفهم من المهاجرين خلص إلى النتائج الموضحة في الجدول (٣٣).

المعدل	ألمانيا	بريطانيا	إسبانيا	فرنسا	إيطاليا	الرأي حول الهجرة
٢٥	٢٥,١	٣١	١٠,٦	٢٥,٦	٢٧,٣	المهاجرون يشكلون خطراً على ثقافتنا وهويتنا

سابعاً: أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ودورها في تنامي الإسلاموفوبيا

تمثل الاعتداءات التي وقعت على برجى التجارة العالمية في سبتمبر ٢٠٠١، نقطة تحول في العلاقات بين الدول الغربية والدول العربية الإسلامية، المتهمة بضلوع أفرادها في تلك الأحداث، مما منح الولايات المتحدة الحق التاريخي للرد على مثل تلك الهجمات، من خلال استراتيجية الحرب ضد الإرهاب، مستعملة الحرب الاستباقية (الوقائية) وسيلة تحول دون تكرار مثل هذه الهجمات في المستقبل، ويؤكد هذا الطرح باسكال بونيفاس الذي يقول: " إن أحداث ١١ سبتمبر، وتهديد الإرهاب الإسلامي، مهدت لفكرة قيام حرب الحضارات بين العالم الغربي والعالم الإسلامي " (٣٤).

لقد أثرت تلك الأحداث على مفهوم التهديد والخطر، فعندما يصبح تحديد مفهوم التهديد الإرهابي في الصراعات الدولية الحالية قائماً على أساس ثقافي وليس على أساس إيديولوجي أو اقتصادي أو سياسي، يضع المواطن الأوربي القيم الثقافية معياراً لتحديد مصدر الخطر، وعليه فإن التهديد مصدره كل من يختلف عن الشعوب الأوروبية في القيم والمعتقدات، كما تبنت الدول الأوروبية الإجراءات القمعية التي سنتها الولايات المتحدة

للقضاء على الخطر الإسلامي في أراضيها، ففي ٢٨ سبتمبر أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ١٣٧٣، الذي يتضمن طلب كانب الدولة الأمريكية، عن طريق الأمم المتحدة، من حلفائها تبني الإجراءات القانونية نفسها كالولايات المتحدة (وذلك دون مراعاة مدى احترام تلك الإجراءات للمعاهدات الدولية الخاصة بحماية حقوق الإنسان)، وقد طبقت ٥٥ دولة (بما فيها فرنسا، من خلال "القانون حول الإجراءات الأمنية اليومية") بعض إجراءات قانون باتريوت الأمريكي "U.S Patriot Act" في نظامها القانوني الداخلي.^(٣٥) وهذا ما أدى إلى تدهور وضع المهاجرين العرب في الدول الأوروبية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقد أظهر استطلاع للرأي العام في هولندا أن ٤٠٪ من الهولنديين يرغبون في ألا يشعر المسلمون المقيمون في هولندا بأنهم في بلادهم بعد الآن، ويرى ٨٠٪ منهم أنه يجب التشدد في إجراءات دمج المسلمين،^(٣٦) كما نشرت صحيفة دي فولكس كرانت اليومية في ٢٦/٩/٢٠٠١ نتائج بحث ميداني شمل ٨٠٠ شخص، ظهر فيه أن ٦٣٪ من الهولنديين يميلون إلى معاملة المسلمين الذين يحملون أفكاراً معادية للغرب بقسوة من جانب السلطات، وإلى طرد أي مسلم تثبت علاقته بما حدث في أمريكا، أو يتعاطف مع الجهات المنفذة لها.^(٣٧)

ولم يؤد الحدث الأمريكي إلى اهتزاز الواقع الأمريكي حكومة وإعلاماً وشعباً فحسب، بل كشف عن البنية الأخلاقية والفكرية والاجتماعية الضعيفة للمجتمعات الغربية، ومدى هشاشة مبادئ المساواة والحرية واحترام الأديان التي تتباهى بها، فقد فشلت في أول اختبار صعب لها، ففي هولندا ظهرت آثار الاهتزاز على المجتمع برمته، إذ فقد الإعلام الهولندي النسبة البسيطة من الحيادية والموضوعية التي كان يتمتع بها تجاه قضايا الإسلام والمسلمين، وسرعان ما تحول إلى مآكنة ضخ للكرهية والعنصرية ضد الإسلام والمسلمين والعرب، وخلال الأيام العشرة الأولى بعد الحدث بقيت جميع وسائل الإعلام الهولندية تتخذ موقفاً عدائياً صريحاً ضد الإسلام، كما لعبت دوراً تحريضياً في تصعيد ردود الأفعال الشعبية والسياسية والحكومية ضد المسلمين، وتصدرت صور بن لادن مقالات وأخباراً وعناوين مثل: (المليونير بن لادن يجاهد

بالأموال والفتاوى ضد أمريكا)، واحتلت التقارير والبرامج والأفلام الوثائقية التي تتناول الإسلام والحركات الإسلامية معظم أوقات المحطات التلفزيونية، وحتى برامج الأطفال قدمت عدة برامج تحدث معظمها عن لماذا يكره المسلمون أمريكا؟، وبذلت وسائل الإعلام جهودها من أجل إلصاق الإرهاب بالمسلمين، وأنه جزء من تعاليم الإسلام، وأن الإرهاب يمثل جانباً من شخصية المسلم، ففي ندوة تلفزيونية موسعة استمرت أكثر من ساعتين يوم الأحد ١٦/٩/٢٠٠١ وبثت على الهواء مباشرة، شارك فيها عشرات من الصحفيين والمفكرين والكتاب والمؤرخين والبرلمانيين والوزراء وأساتذة الجامعات والمتخصصين في الشرق الأوسط، وكان الحضور الإسلامي ضعيفاً إذ اقتصر على اثنين، أحدهما سوداني والآخر مغربي، حاول المتحدثون بثتي الطرق ربط الإرهاب بالإسلام، وأن تربية المسلم ومفاهيم الموت والحياة تسهل قبول العمليات الانتحارية، وأن الإسلام نفسه يقبل الإرهاب ويتسامح معه ويسميه جهاداً، وطرح وزير الداخلية السابق برام بيبر، ولأول مرة، فكرة إنشاء وزارة للأمن، بهدف حماية هولندا وأوروبا من خطر الإرهاب، أي ملاحقة المسلمين والعرب^(٣٨).

ونتيجة التعبئة الإعلامية ضد المسلمين، وفي ظل وجود أرضية عدائية بين قطاعات من الشعب الهولندي، شهدت الساحة الهولندية أكثر من ستين اعتداء على أفراد مسلمين، تمثلت في معاكسة المسلمات المحجبات، وأحياناً نزع حجابهن، أو رفض صعودهن في وسائل النقل، كما كتبت شعارات مناوئة للإسلام على حافلات المترو والترام وبعض محلات تجارية إسلامية ترافقها شارة الصليب المعقوف، علامة النازية، إضافة إلى شعارات تنادي بطرد كل المسلمين من هولندا، وتعرضت عدة مساجد للاعتداء، ففي مدينتي زولة وفلسنكن تعرض مسجدان لرمي الحجارة، وفي زاندام تعرض مسجد السلطان أحمد، أكبر مسجد في هولندا، إلى إشعال النار فيه، مما أدى إلى أضرار كبيرة، وتعرض مسجد سليمان جلبي في خوركيم إلى إشعال النار فيه، كما أشعلت النار في مدرسة أبي بكر الصديق في مدينة نايميخين، وفي مدينة زولة أشعلت النيران في محطة بنزين يملكها تركي^(٣٩).

ثامناً: حوار الحضارات وتوازن المصالح

تنبع أهمية الحوار العربي الإسلامي مع الغرب الأوروبي والأمريكي من طبيعة الترابط التاريخي الذي يربط الطرفين، فقد تميزت العلاقة بين الحضارتين بالاحتكاك الدائم، سواء في فترات الحروب (الفتوحات الإسلامية، الحروب الصليبية، الحملات الاستعمارية)، أو في فترات السلم من خلال حركة التبادل العلمي والمعرفي بين الحضارتين، ويفسر مثل هذا الاحتكاك بطبيعة المصالح الحيوية التي ينشدها أحد الطرفين لدى الطرف الآخر، وقد أكد هذه الفكرة محمد عابد الجابري، إذ يرى أن العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي لا يحكمها صراع أو حوار الحضارات، وإنما هي شعارات زائفة، الهدف منها تمرير صراع المصالح،^(٤٠) كما يصفها بعلاقة السيد بالعبد: السيد يستغل العبد، وهو يحتاج إليه، إذ تتوقف عليه كثير من شؤونه، والعبد يعاني من السيد، ولكنه هو الآخر محتاج إليه، وبما أن تغيير هذه العلاقة لم يعد ممكناً عن طريق "ثورة العبيد"، لأن الغرب مستعد لأن يكرر- في أي مكان- ما فعله في العراق، فإن ما تسمح به الظروف الآن هو العمل على تحقيق نوع من "توازن المصالح" يحد من هيمنة السيد، وذلك باللجوء إلى أسلوب النضال الذي تمارسه "نقابات العمال"، وهذا النوع من النضال يتطلب قيام تضامن بين دول العالم الإسلامي، شبيه بتضامن نقابات العمال، وسلوك أسلوب "الضغط" الذي يتراوح بين مجرد المطالبة بالحقوق، والقيام بإضرابات، مع الأخذ بلعبة الحوار، والعمل بمبدأ "خذ وطالب"، وهذا هو الحوار المطلوب اليوم: حوار من جنس حوار النقابات المنظمة المتضامنة المستميتة في المطالبة بحقوقها مع أصحاب المعامل والمؤسسات.^(٤١)

ففي ظل الخوف من الإسلام نتيجة حملات التشويه التي تشنها أطراف غربية، رسمية أو غير رسمية، وبمختلف الوسائل، سواء عبر وسائل الاتصال، أو عبر المقررات المدرسية، أو حتى في السلوكات اليومية للمواطن الأوروبي، ونتيجة الضعف وحالة التشتت التي تعرفها المجتمعات العربية الإسلامية، سواء في الدول العربية أو في الدول الأوروبية، (فكرياً وحضارياً وإعلامياً وسياسياً)، لا يمكن أن ينجح الحوار الحضاري مع

الدول الغربية إلا باستخدام المصلحة وسيلة ضغط وابتزاز تجبرهم على الجلوس إلى طاولة الحوار، والأخذ بعين الاعتبار المصالح العربية الإسلامية، وعلى رأسها تحسين صورة الإسلام، والنظر إليه من خلال عيون عربية إسلامية، وليس بعيون صهيونية متطرفة، وقد كان للدول العربية تجربة ناجحة في السبعينات نتيجة الحصار في الطاقة البترولية الذي فرضته على الدول الغربية من أجل إيقاف الدعم الغربي لإسرائيل، مما أجبر الدول الأوروبية على اقتراح مبادرة الحوار العربي الأوروبي في عام ١٩٧٥.

خلاصة

- إن الإسلاموفوبيا، حسب هنتنغتون، هو شعور بالوطنية نتيجة تعلق الشعوب الأوروبية بثقافتها، فهي حق مشروع، فهل لنا أن نشعر بالعولفوبيا، أو الأميركفوبيا.
- إن مفهوم الإسلاموفوبيا، حسب هنتنغتون، يعني الخوف من تصاعد الصحوة الإسلامية، واتجاه المسلمين نحو الاعتماد على الإسلام منهج حياة.
- الإسلاموفوبيا هو نتيجة الخوف من رفض المسلمين لقيم الغرب وثقافتهم التي تسعى الولايات المتحدة وحلفاؤها إلى عولمتها على شعوب العالم.
- ساهمت سلوكيات المسلمين الخاطئة في تشويه صورة الإسلام، ومنح الأطراف الصهيونية متهماً مثالياً لكل الأحداث الإرهابية التي وقعت في الدول الغربية، (مع التشكيك في مدى تورط المسلمين فيها).
- يعتبر الاستشراق أهم وسيلة استخدمها الاستعمار من أجل إخضاع المستعمرات، وها هو اليوم يواصل على النحو نفسه، من خلال محاولة التوسع الإمبريالي على حساب دول العالم الأخرى مستخدماً الاستشراق وسيلة، والإسلاموفوبيا استراتيجية، من أجل القضاء على المناهضة الحضارية لدى المسلمين ممثلة في الإسلام.
- قام الإعلام الغربي بتوظيف بعض السلوكيات الخاطئة ونسبها إلى الإسلام عمداً، دون الإمعان في مدى مطابقة هذه السلوكيات لتعاليم الدين الإسلامي.
- إن الإسلاموفوبيا مؤسسة ومجسدة في مراكز صنع القرار الغربية، إذ تنقل وسائل

الاتصال من حين لآخر بتصريحات عنصرية تصدر عن شخصيات نافذة في الحكومات الغربية.

- تعتبر حركة اليمين المتطرف مجرد رد فعل على العولمة، في حين أن هذه المجتمعات الغربية هي التي تسعى إلى تجسيد هذه العولمة، وفرضها على بقية شعوب العالم.
- ساهمت أحداث ١١ سبتمبر في تعزيز موقف الأحزاب اليمينية، وتأكيد صحة طرحها حول الإسلام، مما منحها مصداقية أكبر في الانتخابات، كما سمحت لها بالدخول في الحكومات والحصول على حقائب وزارية.
- نتيجة أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أصبح مفهوم الخطر الإرهابي يقوم على أساس ثقافي حضاري، وليس على أساس إيديولوجي، اقتصادي أو سياسي، لقد أسست أحداث ١١ سبتمبر لمفهوم جديد حول الخطر أو التهديد.
- التدهور في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية الذي تعيشه المجتمعات العربية الإسلامية، يقابله تطور إعلامي وحضاري غربي، لذلك فإن حوار حضارات في هذه الظروف غير المتكافئة غير ممكن، وعليه فإن حوار المصالح هو الحل.

الهوامش

(١): ندوة الخبراء العرب لصياغة موقف عربي وإسلامي في الحوار، المنعقد بأبوظبي، من ٤ إلى ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦، ص ٢.

(2): Dialogue Amongue Civilisations, **Regional Summit on Inter-religious and Inter-ethnic Dialogue**, Tirana, Albania, 9and10 Décembre 2004, P6.

(٣): السيد محمد الشاهد، المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة: دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠١، ص ٦.

(٤): نادية محمود مصطفى، علا أبو زيد، وآخرون، خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات، القاهرة: دار السلام، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٢.

(٥): عبد الله تركماني، سبل لنجاح حوار الثقافات في عالم متغير، ورقة قدمت في إطار ندوة " التراث العربي والحوار الثقافي " من ٢٣ إلى ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٥، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة تونس.

(٦): المهدي المنجرة، حوار التواصل، مجلة عالم التربية، عدد ١٧، ٢٠٠٧، ص ٤٦.

(٧): محمد محفوظ الإسلام والغرب وحوار المستقبل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٣٥.

(8) : Samuel Huntington, **Le choc des civilisations**, traduit de l'anglais (The Clash of Civilisations, 1996). Odile Jacob, 2007, p219

(٩): فاطمة لكعص، أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وانعكاسها على المنظومة الحضارية العربية والإسلامية، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجستير في العلاقات الدولية، كلية الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٢٨.

(١٠): المرجع نفسه، ص ٣٨.

(١١): أحمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، الرباط: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢.

(١٢): المرجع نفسه، ص ٣.

(١٣): المرجع نفسه، ص ٣.

(١٤): حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٦٧.

(١٥): لويـزة آيت حمادوش، الإسلام السياسي وإدارته في السياسة الخارجية الأميركية بعد الحرب الباردة، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في العلاقات الدولية، جامعة الجزائر: معهد العلوم السياسية والإعلام، ٢٠٠٢، ص ٦٤.

(١٦): جون إسبوزيتو، الحركات الإسلامية وتحقيق الديمقراطية وسياسة الولايات المتحدة الأميركية الخارجية، مقالة صدرت في كتاب: امتطاء النمر تحدي الشرق الأوسط بعد الحرب الباردة، مار فيني، وليم لويس، (تر) عبد الله جمعة الحاج، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ١٩٩٦، ص ٢٣٣.

(١٧): غالية بن زيوش، الهجرة والتعاون الأورومتوسطي منذ منتصف السبعينات، مذكرة مكملـة لنيل شهادة ماجستير في العلاقات الدولية، جامعة الجزائر، كلية الإعلام والاتصال، ٢٠٠٥، ص ٨٨.

(١٨): تتضمن التمامية معنى التام والكل في أي معتقد، وهي "تصور شامل ينادي بالعودة إلى القيم الدينية والأخلاقية التي يهددها كل من التطور الاقتصادي والاجتماعي، وتأثير الثقافات الأجنبية، فيفرض احترام التقاليد ويعارض التحولات التي تعتبرها مضرّة ومزيلة للاستقرار، كما يقصي المادية الكائنة في الماركسية والرأسمالية.

(١٩): لويـزة آيت حمادوش، المرجع السابق ذكره، ص ٨.

(٢٠): محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام...والغرب، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٥، ص ١٧٦.

(٢١): المرجع نفسه، ص ١٨٠.

(22): Ouria shéhérazade kahil, rapport sur l'islamophobie en France 2008, collective contre l'islamophobie, www.islamophobie.net, P4.

(٢٣): محمد بشاري، صورة الإسلام في الإعلام الغربي، بيروت: دار الفكر، ص ٢٣.

(٢٤): لويـزة آيت حمادوش، المرجع السابق ذكره، ص ٦٥.

(٢٥): حلمي خضر ساري، المرجع السابق ذكره، ص ٩١.

(26): Marlene Nasr, Les Arabes et l'islam vus par les manuels scolaires francais (1986 et 1997), Paris : editions Kartala , 1995 , P25-26

(27): Ibid, P46.

(28): Magali Balent , l'union européenne face aux défis de l'extrémisme identitaire, question d'europe, N°177, Juillet 2010, P1.

(٢٩): علاء الحمارنة، المسلمون في أوروبا-خريطة التمييز، تقرير اتحاد هلسنكي العالمي، مجلة دراسات استراتيجية، العدد ٠١، جانفي/كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦، ص ٩٥.

- (٣٠): المرجع نفسه، ص ١١٤.
- (٣١): غالية بن زيوش، المرجع السابق ذكره، ص ٨٨.
- (32): Magali Balent , Ibid, P2.
- (٣٣): غالية بن زيوش، المرجع السابق ذكره، ص ٨٨.
- (34): Ouria shéhérazade kahl, Ibid , P8.
- (35): Thierry Meyssan, 11 septembre 2001 l'effroyable imposture, éditions Carnot, paris, 2002, p135.
- (٣٦): حميد الهاشمي، العرب وهولندا الأحوال الاجتماعية للمهاجرين العرب في هولندا، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٣٤.
- (٣٧): صلاح عبد الرزاق، الأقليات المسلمة في الغرب: قضايا فقهية وهموم ثقافية، (د.م.ن)، ٢٠٠٥، ص ١٩٨.
- (٣٨): المرجع نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.
- (٣٩): المرجع نفسه، ص ٢١١.
- (٤٠): وهذا ما يؤكد غراهام فولر (باحث بمؤسسة راند Rand) في مقال نشر له في مجلة السياسة الخارجية Foreign Affairs سنة ١٩٩٥ بقوله: "إن الصدام الحضاري ليس صداماً حول المسيح أو كونفوشيوس أو النبي محمد، بقدر ما هو صراع سببه التوزيع غير العادل للقوة والثروة والنفوذ والازدراء التاريخي الذي تنظر به الدول والشعوب الكبرى إلى الصغرى الثقافة وسيلة للتعبير عن المنازعات وليست سبباً فيها". للمزيد أنظر: Graham E. Fuller and Ian O. Lesser, A Sense of Siege: The Geopolitics of Islam and the West, Foreign Affairs, September/October 1995.
- (٤١): محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص ١٣٢.